

DOI: 10.54240/2318-013-002-007

سيدي واضح على ضوء نصوص

مناقب صلحاء شلف للمازوني موسى بن عيسى

sidi Wadheh in the light of the texts of the virtues

of Solaha Chlef by al-Mazouni, Musa bin Issa

اسم ولقب المؤلف المرسل للمقال: بلمداني نوال - Belmaddani Naouel صص 118-134

الدرجة والعنوان المهني: أستاذة في التاريخ الوسيط- جامعة مصطفى اسطمبولي- معسكر.

البريد الإلكتروني: naouel.belmaddani@univ-mascara.dz

تاريخ استقبال المقال: 2023-06-19 تاريخ المراجعة: 2023-07-10 تاريخ القبول: 2023-11-04

الملخص: اتبع العديد من شيوخ المغرب الأوسط طريق التصوف، مبتعدين بذلك عن ملذات الحياة وفتنها، مفضلين العزلة عن باقي أفراد المجتمع، متفرغين للعبادة ومجتهدين فيها، مكتفين ببساطة العيش والكسب الحلال، راغبين في التقرب إلى الله عز وجل، وهناك من المتصوفة من كانت له علاقات مع العامة والخاصة من المجتمع.

من بين هؤلاء الشيوخ المتصوفة: أبو البيان سيدي واضح بن عاصم المكناسي (سيدي واضح)، أحد متصوفة القرن السابع الهجري المعروفين بالمغرب الأوسط، كان مجتهداً في عبادته، إلى أن أصبح من الروحانيين، كانت له العديد من المناقب والمكاشفات، ومواقف مع السلطان الزياني يغمراسن بن زيان.

إذن، من هو أبو البيان واضح بن عاصم المكناسي؟ كيف كانت علاقته بأفراد المجتمع؟ ما هي أهم المواقف التي سجلت له في علاقته بالسلطان الزياني يغمراسن؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه من خلال ورقتنا البحثية المعنونة بـ "سيدي واضح على ضوء نصوص مناقب صلحاء شلف للمازوني، موسى بن عيسى".

الكلمات المفتاحية: سيدي واضح، منطقة شلف، التصوف، الكرامات، السلطان الزياني

Abstract: Many of the sheikhs of the Middle Maghreb followed the path of Sufism, moving away from the pleasures and temptations of life, preferring isolation from the rest of society, devoting

themselves to worship and diligent in it, content with the simplicity of living and earning halal, wishing to get closer to God Almighty, and there are Sufis who had relations with the public and private of society.

Among these Sufi sheikhs: Abu al-Bayan Sidi Wadh bin Asim al-Meknassi (Sidi Wadh), one of the Sufis of the seventh century AH known as the Middle Maghreb, was diligent in his worship, until he became a spiritual person, had many virtues and revelations, and positions with Sultan Zayani Yaghmarasin bin Zayan.

So, who is Abu al-Bayan Wadh ibn 'Asim al-Meknassi? How was his relationship with members of society? What were the most important situations recorded for him in his relationship with the Zayani Sultan Yaghmarasin? This is what we will try to answer through our research paper entitled "Sidi Wadh in the light of the texts of the virtues of Salha Chlef by Mazouni, Moussa Ben Issa".

Keywords: Sidi Wade, Chlef region, Sufism, Karamat, Sultan Zayani.

مقدمة: ارتبط تيار التصوف بالوازع الديني والروحي للفرد والجماعة، وشاع هذا التيار في مختلف أقطار العالم الإسلامي مشرقاً ومغرباً، ومس مجال الفكر والثقافة، فكان له حظ وافر من التأليف، فقد ظهر نوع من المصنفات سُمي بـ "كتب المناقب"، وهي مصنفات اهتم فيها أصحابها برصد سير الصوفية من الأولياء والصلحاء، وتصويرهم في قالب يستمد منه المثال، مركزين على فعاليتهم الروحية والدينية والاجتماعية التي اكتسبوها من خلال التفاف الخاص والعام حولهم لما يظهرونه من كرامات تُثبت ورع الشيخ وولايته وزهده وصلاح حاله وأحواله، ومن بين هذه المصنفات جاء كتاب: "مناقب صلحاء شلف: وهو مختصر كتاب ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار" لأبي عمران موسى بن عيسى المازوني، الذي زخر بكم هائل من الأولياء والصلحين ممن كانت لهم مقامات في الزهد ومكاشفات لأُمور الباطن وأحوال الظاهر، أمثال الولي الصالح "أبو البيان واضح بن عاصم المكناسي".

*المازوني وكتابه "مناقب صلحاء شلف": هو أبو عمران موسى بن عيسى المازوني، الشيخ الإمام العالم القدوة الصدر الأوحد⁽¹⁾، الفقيه الأجل المدرس المحقق القاضي الأكمل⁽²⁾، ذكره

(1)- المازوني، أبو عمران موسى بن عيسى، مناقب صلحاء شلف، مختصر كتاب ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار، تحقيق: عبد القادر بوبايا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2019م، ص345.

(2)- التنيكتي، أحمد بابا، نبيل الابتهاج لمعرفة من ليس في الديباج، تحقيق: محمد مطيع، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط (2000م)، ج2، ص243.

الحفناوي قائلاً: "عالم جليل وعامل أصيل تمكن في السنة حتى لم يدع للبدعة مدخلاً إلا سده ولا لأهلها مقتلاً إلا قده فهو في الدين طود شامخ ذو مجد باذخ على أولياء الله"⁽¹⁾.

بعد أن عرّف الحفناوي المازوني، عرّج على مصنفه المناقي ليصفه بالتأليف عظيم القدر كبير الفائدة، وهو تلخيص من كتاب منقبي له "سماه ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار"، لخص فيه مناقب المشيخة المشهورة بالصالح بمنطقة شلف⁽²⁾، ذاكرًا سبعة متصوفة فقط، من بينهم الشيخ أبي البيان واضح بن عاصم المكناسي، وقد فصل الأستاذ بوبابة محقق الكتاب في ذلك.

أمّا دوافع تأليف الكتاب فقد ذكرها المؤلّف قائلاً: "... ووعدته أن ألخص له شيئاً من فضائل شيخنا وسيدنا الشيخ الولي أبي البيان واضح وطُرفاً مما تحصّل لديّ من مناقب غيره من صلحاء شلف المشهورين بالبركات وإجابة الدعوات، وما أيدهم الله به من الكرامات ..."⁽³⁾، والنص يؤكد على وجود شخص ما طلب من المازوني التعريف بأولياء منطقة شلف، وقد تنوعت مصادره ضمن هذا المصنف، منها المكتوب ومنها الشفوي⁽⁴⁾.

*أبو البيان واضح: دراسة في النشأة والسير: هو الولي الصالح الشيخ أبو البيان واضح بن عاصم المكناسي⁽⁵⁾، من متصوفة أواسط القرن 7هـ/13م بمنطقة شلف⁽⁶⁾، ذكره ابن مرزوق الخطيب (ت 781هـ/1379م) قائلاً: "الشيخ الصالح، واضح، الكبير القدر، الذي كان بنواحي شلف"⁽⁷⁾، اشتغل الشيخ في بداية أمره خماساً عند أحد شيوخ المنطقة الصالحين⁽⁸⁾، وكان صاحب كرامات ماثورة ومقامات وأحوال مشهورة، مكاشفاً مطلعاً على أسرار الناس، يخبر القاصدين إليه بما في قلوبهم ويكاشفهم عن نياتهم ويتكلم على خواطرهم، كبير القدر من

(1)- الحفناوي، أبو القاسم، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيبير فونتانة الشرقية، الجزائر، ط (1906م)، ج 2، ص 572.

(2)- الحفناوي، المصدر السابق، ج 2، ص 72. / مراجعة هوامش المحقق الأستاذ عبد القادر بوبابة على كتاب: "مناقب صلحاء شلف...". المازوني، المصدر السابق، ص 9-22.

(3)- المازوني، المصدر السابق، ص 23.

(4)- المصدر نفسه، ص 24-36 (مقدمة المحقق).

(5)- نفسه، ص 89.

(6)- نفسه، ص 114.

(7)- المازوني، المصدر السابق، ص 92.

(8)- الحفناوي، المصدر السابق، ج 2، ص 576.

أرباب الخطوة، وعظيم القدر عند أرباب الصوفية معروفاً بالزهد والإيثار مقصوداً بالزيارة من جميع الأقطار⁽¹⁾، وهذا ما يؤكد على أن شهرته قد بلغت مشارق العالم الإسلامي ومغاربه. الظاهر أن أبا البيان قد انتهج مجموعة من الرياضات؛ إذ كان "فاضلاً قاهراً لأحواله، مجتهداً في العبادة، دائم التوجه إلى الله، قامعاً لشهوته"⁽²⁾، وهذه الرياضات الصوفية ذكرها أبو حامد الغزالي في كتابه "مكاشفة القلوب" قائلاً: "والرياضة على أربعة أوجه القوت من الطعام والغمض من المنام والحاجة من الكلام وحمل الأذى من جميع الأنام فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات ومن قلة المنام صفو الإيرادات ومن قلة الكلام السلامة من الآفات ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات"⁽³⁾، علماً أن التصوف يتجلى في اعتزال مجالات النشاط العام وحصص الطاقة في الأنشطة ذات الجانب الروحي، واتخذت هذه الظاهرة أبعادها في الحياة اليومية من خلال التزام أسلوب بسيط ومتواضع في العيش اليومي⁽⁴⁾، وهي أمور عُرفت عن الشيخ واضح حسب إشارات المازوني.

كما بلغ أبو البيان القطبية قبل وفاته أواخر القرن السابع⁽⁵⁾، بعد سنة 681 هـ/ 1282 م تاريخ وفاة يغمراسن بن زيان⁽⁶⁾، والقطبية للعارف لدى الصوفية هي المنتهى، ولقب عندهم لمن

(1)- ابن مرزوق الخطيب، أبو عبد الله محمد التلمساني، المناقب المرزوقية، تح: سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط1، 1429 هـ/ 2008 م، ص 288/ ابن سعد التلمساني، التلمساني، محمد بن أبي الفضل بن سعيد، النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب، مخطوط مكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، المغرب، ج4، الورقة 337-338. الرابط:

<https://ia800802.us.archive.org/16/items/Al-nadjmAl-thakib.full/al-nadjm.pdf>

(2)- المازوني، المصدر السابق، ص 89.

(3)- أبو حامد الغزالي، مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب، تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح محمد محمد عويضة، (د.م)، (د.ط)، (د.ت)، ص 216. / الكاشاني، عبد الرزاق، اصطلاحات الصوفية، تحقيق: عبد العال شاهين، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع، ط1، 1992 م، ج2، ص ص 201-203.

(4)- خديجة السمعلي، الفكر الصوفي من خلال مناقب أبي السعيد الباجي، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، د.ت، ص 7.

(5)- المازوني، المصدر السابق، ص 149. / الحفناوي، المصدر السابق، ص 577.

(6)- المازوني، المصدر نفسه، هامش 1 تعليق المحقق، ص 149.

يُفَوِّضُ الله له التفويض والتدبير في الوجود في العالم السفلي⁽¹⁾، أما أسرة الشيخ فلم ينقل عنها منظم كتاب "مناقب صلحاء شلف" معلومات.

*زهد الشيخ واضح وتقشفه: كان الشيخ واضح من أكابر أولياء⁽²⁾ الله تعالى⁽³⁾، المعروفين بمغالبة النفس والتقشف والترفع عن شهوات الدنيا وملذاتها وكذا الزهد⁽⁴⁾، ويرى البعض أن الزهد هو ترك لقاء الناس، ومنهم من قال: في ترك الشهوات، ومنهم من قال في ترك الشبغ، ومنهم من يرى أن الزهد في ترك ما يشغلك عن الله عز وجل⁽⁵⁾، والمطلع على سيرة سيدي واضح سيجد اجتماع هذه صفات في شخصه، فعُرف بتواضعه وتستره إذ لا يحب أن يعرف سره أحد⁽⁶⁾، والتواضع من الأخلاق والملكات المرضية التي هي مبادئ الأفعال الجميلة⁽⁷⁾، وأصله إتباع العبد لصولة الحق في حكمه، وخلقه، وسلطانته⁽⁸⁾.

من سلوك وتصرفات المتصوفة مجاهدة النفس في الطعام، حتى أصبح أبو البيان يقتات ببقول الفحوص ومباحات الأرض⁽⁹⁾، إلى أن انتهت حاله إلى ألا يفطر إلا على رأس أربعين يوماً؛ فأكل الخبيز⁽¹⁰⁾، ثم انتقل إلى أكل الحلزون⁽¹¹⁾، فحب الجودر⁽¹²⁾، لأن النفس لا تغلب إلا بالجوع حسب ما جاء عند الغزالي قائلاً: "ينبغي للعاقل أن يقمع شهوة النفس بالجوع إذا الجوع

(1)- المصدر نفسه، ص144. / ابن سعد التلمساني، المصدر السابق، ورقة 337.

(2)- الولي: (جمع أولياء)، ومعناه من تولى الحق أمره، وحفظه من العصيان ولم يخله ونفسه بالخدلان حتى يبلغه في الكمال مبلغ الرجال، ينظر: الكاشاني، المصدر السابق، ج1، ص79.

(3)- المازوني، المصدر السابق، ص123.

(4)- خديجة السمعلي، المرجع السابق، ص13.

(5)- محمد خير رمضان يوسف، نوادر الشوارد فوائد التحقيق والتدقيق لثقافة عالية، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1999م، ص232. / الكاشاني، المصدر السابق، ج2، ص ص216-217.

(6)- المازوني، المصدر السابق، ص92.

(7)- الكاشاني، المصدر السابق، ج2، ص245.

(8)- المصدر نفسه، ج2، ص260.

(9)- المازوني، المصدر السابق، ص89.

(10)- المصدر نفسه، ص89.

(11)- نفسه، ص91.

(12)- نفسه، ص91.

قهر لعدو الله⁽¹⁾، وهذا يفسر لماذا كان الشيخ واضح "صَوَّاماً قَوَّاماً حتى نصب لحمه ورق عظمه، وضعفت قواه من كثرة الوصال"⁽²⁾، إلى أن عجز عن التصرف بنفسه، وربما خرج أحياناً من مغارته وموضع تعبدّه يتهاذى بين رجلين⁽³⁾، حتى أنّه لَقِبَ نفسه بمَجُوطُوط⁽⁴⁾، والمقصود بالمصطلح حسب محقق الكتاب الأستاذ عبد القادر بوباية كناية عن نحالة جسمه أو شدة تواضعه⁽⁵⁾.

لا نستبعد أن تكون نشأة الشيخ واضح نشأة صوفية، كان لها أثر بارز على تكوينه الصوفي، الأمر الذي جعله يتصل بالعلماء الأتقياء المعروفين بالصلاح كالشيخ عزوز؛ فكانت له مكانة هامة وخصال حميدة جعلته مقصداً للعامة والخاصة.

* زاوية سيدي واضح: انتهج أبو البيان واضح طريق المتصوفة الزهاد في إتباع الخلوة⁽⁶⁾، ونبد الدنيا وشهواتها، فخصص مكاناً لتعبده يعرف بثغور فاتين، ثم انتقل بعدها لموضع آخر، بنى فيه حُومَة (تاعشوشت)، بأرزو قبلة جبل وافرشان بقبيلة مكناسة، فكان يتعبد فيها وفي كهف هناك إلى أن اشتهر أمره، وداع صيته في الأفاق⁽⁷⁾، فعلت عند ذلك همته واشتدت خدمته⁽⁸⁾، وحسب إشارة صاحب كتاب "مناقب صلحاء شلف" كانت للشيخ كهوف وغيرها، بهذا الجبل يتعبد فيها⁽⁹⁾، منوهاً على أنّ هذه الأماكن خلوة للصالحين أصحاب الكرامات، والخلوة صفة أهل الصّفوة⁽¹⁰⁾.

(1)- أبو حامد الغزالي، المصدر السابق، ص15.

(2)- المازوني، المصدر السابق، ص89-

(3)- المصدر نفسه، ص90-

(4)- نفسه، ص133.

(5)- نفسه، ص133.

(6)- الخلوة: السير مع الحق بحيث لا يرى غيره. أمّا صورتها فهي ما يتوسل به إلى هذا المعنى من التبتل إلى الله، ينظر: الكاشاني، المصدر السابق، ج1، ص180.

(7)- المازوني، المصدر السابق، ص94-

(8)- المصدر نفسه، ص108.

(9)- نفسه، ص108.

(10)- نفسه، ص110.

أمام تلك الشهرة أصبح للشيخ واضح زاوية بها عدد من الفقهاء، مقصودة بالزيارة لالتماس الدعاء من أقاصي البلدان، وممن زاره بها الحاج الصالح أبو مهدي عيسى بن فكرون⁽¹⁾، وقد ظهرت بركة الشيخ في كشف المُلَمَّات لمن استجار به وتعلق بزاويته⁽²⁾، لكن لا نملك تفاصيل حول من قصده للتعليم والمعرفة بالزاوية، ماعدا الإشارة إلى أنّ الشيخ واضح بن عثمان ابن محمد بن عيسى بن فكرون كان من بين تلامذته⁽³⁾، وكذا سيدي المداح⁽⁴⁾.

عموماً، النشاط العلمي والثقافي للصوفية كان موجوداً وتمحور حول قراءة القرآن وربما شيئاً من الفقه، حتى أنّ أبا البيان وجّه طالبين لبيّاتيه بكتاب "روضة الحقائق"⁽⁵⁾، وقد نوه محقق الكتاب أن هذا المصنف قد يكون "روضة الحقائق ورياض الحقائق لمؤلف مجهول"، أو ربما "روض الحقائق ورياض الخلائق لمسلمة بن أحمد بن قاسم المجريطي (ت 398هـ/ 1007م)⁽⁶⁾، إذن لا يمكن تجاهل دور النشاط الصوفي فيها، وهذا ما يفسر كثرت أتباعه ومريديه الذين كان يهتم بهم.

*مكانة الشيخ واضح العلمية: بلغ الشيخ واضح مقام السّادة، فعلت عند ذلك همّته واشتدّت خدمته، واعترف بولايته الخواص والجمهور⁽⁷⁾، وعليه ومما سبق ذكره نخلّص إلى أنّ هذا الولي الصالح كانت له مساهمة علمية، خاصة وأنّ المازوني يشير في باب "الصلحاء وطلب العلم" إلى ضرورة مساءلة العلماء وحضور مجالسهم ليعرف المرء ما يجمله، فهذه المجالس يذكر فيها اسم الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وكذا أخبار السلف الصالح وأهل الفضل والدين وكلام الأئمة المرشدين⁽⁸⁾.

(1)- المازوني، المصدر السابق، ص133.

(2)- نفسه، ص114.

(3)- الونشريسي، أحمد بن يحيى، وفيات الونشريسي، تحقيق: محمد بن يوسف القاضي، شركة نوايح الفكر، القاهرة، ط1، 2009م، ص 97- / المازري، الأغا بن عودة، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق: يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج1، ص164.

(4)- المازوني، المصدر السابق، ينظر: هامش رقم 2، ص 93-

(5)- المصدر نفسه، ص136.

(6)- نفسه، هامش 1، ص136.

(7)- نفسه، ص108.

(8)- نفسه، ص160-

تتلمذ الشيخ واضح على إمام فريضته الشيخ عزوز⁽¹⁾، وكان هذا الأخير شيخاً وفقهياً صالحاً⁽²⁾، وأكد الشيخ عزوز أنّ تلميذه وصل رتبة أولياء الله⁽³⁾، كما تتلمذ على يد الشيخ أبي يعقوب بن أبي عبد الله محمد بن محيو الهوّاري الشّهير بالأبرش⁽⁴⁾، وكان الأبرش عالماً تفقّه بالبلاد المشرقية⁽⁵⁾.

في نفس السياق وردت إشارة هامة لدى المازوني تؤكد مدى اهتمام سيدي واضح بكتاب "أحياء علوم الدين" لحجة الإسلام الإمام الغزالي (ت 505 هـ/ 1111 م)⁽⁶⁾، وهو من أهم الكتب الصوفية⁽⁷⁾، وكان يتحامل بالعمل بما فيه، واستدام ذلك إلى أن ارتقى لمرتبة الرجال، إذ "لا يصل إلى معرفة علم الغزالي وفضله إلا من بلغ أو كاد يبلغ الكمال في عقله"⁽⁸⁾، فدخل أبو البيان في إعداد الأبدال، وظهرت عليه أنوار ذي الجلال، ومن علوم الغيب أسرار⁽⁹⁾.

أولع الشيخ واضح بمطالعة كتاب إحياء علوم الدين وحفظه⁽¹⁰⁾، خاصة وأنّ الغزالي وضع هذا المصنف ليلفت نظر المسلمين إلى أصول دينهم القويم، مشيراً إلى ما حلّ بالإسلام من انصراف أهله إلى شؤون الدنيا وإهمالهم شعائر دينهم، وما نصّ عليه القرآن الكريم من مثل عليا وآداب وأخلاق كريمة، وما انطوى عليه الحديث الشريف من قواعد دينية قويمة وحكم رفيعة⁽¹¹⁾، ينقسم هذا الكتاب إلى أربعة أرباع، وهي ربع العبادات، ربع العادات، ربع المهلكات، ربع المنجيات، وفي كل ربع عشرة كتب⁽¹²⁾، وهذا ما يؤكد على أنّ الشيخ واضح كان رجل علم

(1)- المصدر نفسه، ص 97-

(2)- ابن سعد التلمساني، المصدر السابق، ج 4، ورقة 339/ الحفناوي، المصدر السابق، ج 2، ص 576-

(3)- ابن سعد التلمساني، المصدر السابق، ج 4، ورقة 339-

(4)- المازوني، المصدر السابق، ص 151.

(5)- المصدر نفسه، ص 152.

(6)- نفسه، ص 280-281.

(7)- مصطفى باحو، علماء المغرب ومقاومتهم للبدع والتصوف والقبورية والمواسم، جريدة السيل، ط 2، 2007 م، ص 56.

(8)- عبد السلام السيد، موسوعة علماء العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، المملكة الأردنية للنشر والتوزيع، ط 2، 2007، ص 206

(9)- المصدر نفسه، ص 91.

(10)- المازوني، المصدر السابق، ص 280-281.

(11)- عبد السلام السيد، المرجع السابق، ص 207.

(12)- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 2005 م، ص 8-10.

متمسك بالكتاب والسنة، متبعا أبا حامد الغزالي في نهجه التصوفي، وعقيدته الأشعرية والتي كان عليها كثير من علماء الإسلام الأعلام الجهابذة العظام⁽¹⁾.

من جهة أخرى، حاولت التعرف على العنوانين اللذين ذكرهما الأستاذ عبد القادر بوباية في الهامش، غير أنني لم أصل إلى أي معلومة فيما يخص كتاب "روضة الحدائق ورياض الحقائق لمؤلف مجهول"⁽²⁾، أما كتاب "روض الحقائق ورياض الخلائق" فهو لمسلمة بن أحمد بن قاسم المجريطي (ت 398 هـ/ 1007 م)⁽³⁾، من أهل قرطبة. وكان إمام الرياضيين بالأندلس في وقته وأعلم من كان قبله بعلم الأفلاك وحركات النجوم⁽⁴⁾، وكان عالماً بالفرائض مشهوراً بمعرفتها⁽⁵⁾، ولو صح ما ذهب إليه محقق الكتاب فالشيخ واضح كان موسوعياً، سلك مسلك العلماء في بناء عبادته على العلم والمعرفة، وفي مقدمة هذه العلوم، الفقه، الذي أكد عليه الفقيه الصوفي زروق، أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى الفاسي (ت 899 هـ/ 1493 م) قائلاً: "كُن فقيهاً صوفياً ولا تكن صوفياً فقيهاً، وصوفي الفقهاء أكمل من فقيه الصوفية وأسلم"⁽⁶⁾.

إنَّ تبهر الشيخ وتمكنه في عدد من المعارف والعلوم جعلته يحمل أوصافاً عدة لها معاني ودلالاتها لدى المتصوفة، منها: الفاضل القاهر لأحواله، والمجتهد في العبادة⁽⁷⁾، الشيخ الصالح،

(1)- عبد العزيز الصغير دخان، الإمام العلامة محمد بن يوسف السنوسي التلمساني وجهوده في خدمة الحديث النبوي الشريف، دار كردادة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2011 م، ص 147.

(2)- يشير الأستاذ عبد القادر بوباية إلى وجود نسخة مخطوطة في مكتبة الإسكندرية تحت رقم 7217 / 1313 ب. ينظر المازوني، المصدر السابق، هامش 1 ص 136.

(3)- المازوني، المصدر السابق، الهامش 1، ص 136.

(4)- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998 م، ص 444/المقري التلمساني، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط (2004 م)، ج 6، ص 309.

(5)- ابن بشكوال، كتاب الصلة في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2003 م، ج 2، ص 483/حول شخصية المجريطي: ينظر: الحكيم المجريطي، الرسالة الجامعة، نشر وتحقيق: جميل صليبا، مطبعة الترقى، دمشق، ط (1949 م)، ج 1، ص ص 3-12.

(6)- زروق الفاسي، أبو العباس أحمد بن محمد بن عيسى، قواعد التصوف، تحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (2002 م)، ص 32.

(7)- المازوني، المصدر السابق، ص 89.

الكبير القدر⁽¹⁾، ذو الفضل والاختصاص....⁽²⁾؛ فالشيخ لدى الصوفية مثلاً "هو الإنسان الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة، البالغ إلى حد التكميل فيها، لعلمه بآفات النفوس وأمراضها وأدوائها، ومعرفته بذواتها، وقدرته على شفائها والقيام بهداها، إن استعدت ووفقت لاهتدائها"⁽³⁾، وربما هذه الصفات جعلت الشيخ مقصوداً بالزيارة من جميع الأقطار⁽⁴⁾، منهم كبار العباد المعروفين بالبركة واستجابة الدعاء⁽⁵⁾، كالشيخ الصالح الفاضل والعباد والمجتهد أبو مهدي عيسى بن فكرون⁽⁶⁾، الذي زاره وهو في طريق العودة من الحج؛ إذ وقع في خاطره أن يؤثر الشيخ واضح برؤيته قبل رؤية أهله ويتبرك به⁽⁷⁾، كما زاره الشيخ الصالح فاتح بن يوسف⁽⁸⁾، وكان هذا الأخير "عابداً ناسكاً، فاضلاً ذا كراً، داعياً مجتهداً"⁽⁹⁾.

حتى في مجال الشعر كانت له مساهمة ولا نظن أنها تخرج عن الشعر الصوفي، منها قوله:

أنظر إليّ تَكْرُماً وَتَفَضُّلاً
هَذَا عَبْدُكَ وَاقِفٌ بِالْبَابِ⁽¹⁰⁾

*موقف الشيخ واضح من السلطة: الظاهر أنّ الشيخ واضح كان له موقف من السلطان الزباني يغمراسن، إذ لم يكن راضياً عن معاملته للعامة، فالسلطان رغب في زيارة الشيخ في أحد الأيام بجبل أفرشان ملتصقاً بركته، والدعاء لعقبه⁽¹¹⁾، لأنّ الشيخ كان من الصوفية المشهورين، داعت وانتشرت أنباؤه في الناس، وتداولت الألسنة مناقبه، وتناقلت الركبان

(1)- ابن مرزوق الخطيب، المصدر السابق، ص 288.

(2)- ابن سعد التلمساني، المصدر السابق، ج 4، ورقة 339.

(3)- الكشاني، المصدر السابق، ج 2، ص 172.

(4)- ابن سعد التلمساني، المصدر السابق، ورقة 337.

(5)- المازوني، المصدر السابق، ص 134.

(6)- عيسى بن فكرون: كان فاضلاً متخلقاً، عابداً مجتهداً، حج خمساً وعشرين حجة، قبره من جبل وانشرس مشهور، ينظر:

المصدر نفسه، ص 134.

(7)- المازوني، المصدر نفسه، ص 114.

(8)- المصدر نفسه، ص 323.

(9)- نفسه، ص 320.

(10)- نفسه، ص 127.

(11)- التنسي، محمد بن عبد الله، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق:

محمود بوعياض، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1405 هـ/ 1985 م، ص 126.

غرائب ما يأتي به من أنواع المكاشفات⁽¹⁾، حتى أنّ أمراء وقته كانوا يهابون موضعه ويحترمون أصحابه ومن تعلق به، ويخشون تغيير خاطره عليهم⁽²⁾، لذا اتجه يغمراسن إليه ونزل بمحلاته بأعلى خناق رهيو⁽³⁾، لكن الشيخ واضح لم يخرج إليه وتركه ينتظر طويلاً والوقت حرّ، فصار يستشفع بخدامه وقربائه في رؤيته ومشاهدة وجهه، وكان انتظاره هو وخاصته طويلاً حتى يأسوا من دخولهم إليه⁽⁴⁾.

لم تكن مكانة السلطان ولا جاهه وسيطاً بينه وبين أبي البيان، ولم يرتعب منه، والواضح من هذا التصرف هو تبليغ رسالة للسلطان، إذ يؤكد المازوني قائلاً: "فلما رأى أنهم يئسوا من لقياه برز إليهم من مغارته وأنوار ذي الجلال تملوه، فتهيبوا من الدنو منه، فقال: يا يغمراسن أما تعلم وقوف الضعفاء والمساكين وذوي الحاجة ببابك، وما يجدونه في قلوبهم من الانكسار ومدافعة حُرّاس الأبواب بطول احتجاجك عنهم، وإنّما فعلت ذلك بك لتتقظ من سنة أحوال القاصدين إليك"⁽⁵⁾، فأخذ يغمراسن "يتملّق بين يديه ويعتذر له، وقد علتة خجلة الوقوف، والشيخ في كل ذلك منقبض عنه، فهاله ما رأى ومن معه، وما شاهده من أحواله...."⁽⁶⁾.

من هنا يمكن الوقوف على أمرين هامين، دور الأولياء في تأديب سلاطينهم، لأنهم كانوا على دراية بتماطلهم في قضاء حاجات الرعية، لذا أراد الشيخ واضح أن يجعل السلطان الزياني يعيش نفس الموقف الذي قد يتعرض له أي شخص أراد زيارته، كما أن الموقف يعبر عن الحضور الاجتماعي للولي صاحب الكرامات، ومكانته الاجتماعية، لذا وبدون أي تردد أو تراجع أوصى الشيخ السلطان يغمراسن بضرورة تفقد أحوال المساكين والرفق بالرعية"⁽⁷⁾.

*علاقة الشيخ واضح بعامة المجتمع: بعد تصفح كتاب "مناقب صلحاء شلف..." اتضح تلك العلاقة القوية التي ربطت الولي بأفراد المجتمع، خاصة في فترات الحرب والفتن، هذا

(1)- المازوني، المصدر السابق، ص115-116.

(2)- ابن سعد التلمساني، المصدر السابق، ج4، ورقة 337.

(3)- المازوني، المصدر السابق، ص115-116.

(4)- المصدر نفسه، ص117. / ابن سعد التلمساني، المصدر السابق، الورقة 337.

(5)- المازوني، المصدر السابق، ص118. / ابن سعد التلمساني، المصدر السابق، ورقة 338.

(6)- المازوني، المصدر نفسه، ص118.

(7)- المصدر نفسه، ص123.

الموقف يظهر من خلال إفشال غارة أمير توجين على قبيلة مغراوة؛ إذ نزل محمد بن عبد القوي⁽¹⁾ بعدوة وادي رهيو تجاه زاوية الشيخ سيدي واضح، فخافه الناس وفروا منه بخيامهم ومواشيهم، مستنجدين بالشيخ باكيين خائفين على أنفسهم وحريمهم وأموالهم؛ فخرج الشيخ في سواد الليل متضرعا إلى ربّه في دفع شرّه عنهم⁽²⁾، فنزل العقاب بآبن عبد القوي حسب ما ذكره المازوني، قائلاً: "أصابه وجع، وانتفخ بطنه حتّى كان يصبّ من فمه ودبره"⁽³⁾.

*كرامات⁽⁴⁾ المكاشفة⁽⁵⁾ لدى الشيخ واضح: تطرق ابن خلدون في مقدمته لخوارق المتصوفة وربطها برياضتهم الروحية ومجاهداتهم الشاقة للبدن لتحرير الروح من سلطته وسجنه، وبذلك يتحقق لديهم الخرق للعوائد، فيقول: "وأما المتصوفة فرياضتهم دينية... وإنما يقصدون جمع الهمة والإقبال على الله بالكلية ليحصل لهم أذواق أهل العرفان والتوحيد، ويزيدون في رياضتهم إلى الجمع والجوع التغذية بالذكر، فيها تتم وجهتهم في هذه الرياضة. لأنه إذا نشأت النفس على الذكر كانت أقرب إلى العرفان بالله، وإذا عُزيت عن الذكر كانت شيطانية. وحصول ما يحصل من معرفة الغيب والتّصوّف ولهؤلاء المتصوفة إنّما هو بالعرض، ولا يكون مقصوداً أول الأمر، لأنّه إذا قصد ذلك كانت الوجهة لغير الله، وإنّما هي لقصد التصرف والاطّلاع على الغيب، وأخسر بها صفقة فإنها في الحقيقة شرك"⁽⁶⁾؛ فالمكانة التي يترجمها الصوفي وما يراه فيه الأفراد من كرامات واستجابة للدعاء جعلهم يعتقدون فيه، ويتبركون به ويلجؤون إليه في كثير من الأمور، للاحتماء ببركاته ودعوته، إذ قصد الأفراد ذوي العاهات

(1)- محمد بن عبد القوي: قائد قبيلة بني توجين قتل سنة 690هـ/1291م، ينظر: يحيى بن خلدون، أبو زكريا، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، ط (1980م)، ص 208-209... / التنسي، المصدر السابق، ص 129.

(2)- المازوني، المصدر السابق، ص 127.

(3)- المصدر نفسه، ص 127.

(4)- الكرامات: أمر خارق للعادة يظهر على يد الولي مقرون بالطاعة والعرفان بلا دعوى نبوة، ولا تشبه المعجزة بالكرامة. الكاشاني، مقديش محمود، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواوي، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1988م، 2م، ص 322-334.

(5)- المكاشفة: عُرفت المكاشفة على أنّها "شهود الأعيان، وما فيها من الحوال في عين الحق، فهو التحقيق الصحيح بمطالعة تجليات الأسماء الإلهية". الكاشاني، المصدر السابق، ج 2، ص 346.

(6)- ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، دار الجليل، بيروت، دت، ص 105.

الشيخ واضح للاستشفاء على يده⁽¹⁾، هذه الكرامات توظف أساساً لإظهار قدرة الولي الخارقة ولإيهام الناس بها، حيث أصبح الولي يدري بالمكاشفات على نمط التنبؤات التي تتحقق⁽²⁾، وقد وردت هذه المسألة لدى الشيخ واضح بكثرة، وكانت كرامات المكاشفة في حياته أكثر من أن تُستقصى⁽³⁾، ونذكر منها:

أ- مكاشفة السلطان يغمراسن: لم يكتف الشيخ واضح بوعظ السلطان يغمراسن وتلقيه درسا في كيفية معاملة الرعية، بل صح له بعد التجاوزات التي استتر بها في قصره، وعصا الله سبحانه وتعالى؛ فقد جمع بين أختين نصرانيتين، فأنبه قائلا: "فما خير لدة ساعة مصيرها بصاحبها إلى عذاب الله"⁽⁴⁾، وهنا أدرك يغمراسن مكانة الولي الصالح الشيخ واضح وتأكدت مكاشفته وكراماته، فخرّ عندها السلطان على أقدامه بين يديه حتى عاينه الجمع الحاضرون، وأخذ يرغته في كتم هذه الرذيلة⁽⁵⁾، وقد اتبع الشيخ واضح في تأديبه للسلطان طريق التوبيخ، ثم اتبع أسلوب الوعظ والإرشاد فتاب السلطان ورجع عما قام به، وهي من الأمور التي أشار إليها أبو حامد الغزالي في التعامل.

ب- الشيخ واضح ينصح يغمراسن فيمن يخلفه على عرش الدولة: من الأمور التي ناقشها أبو البيان مع السلطان الزياني، تولى السلطة من بعده، فقال له: "من تعتقد في نفسك ويهجس بخاطرك أن يخلف مكانك من بعدك؟ فقال: هذا وأشار إلى ابنه عامر، ووصفه بأنه فقيه كيّس فطن؛ فقال له الولي: لا تحتاج الرعية إلّا لسلطان معه بعض الغفلة وأما الحاجق الكيّس فتكون الرعية معه في حيرة... وأشار إلى ابنه عثمان؛ فسرّ يغمراسن بذلك لبقاء الملك في عقبه..."⁽⁶⁾، وشاء الله أن كان الأمر في خلافة عثمان بن يغمراسن كما أخبرهم الشيخ⁽⁷⁾.

(1)- المازوني، المصدر السابق، ص114.

(2)- خديجة السمعلي، المرجع السابق، ص16.

(3)- المازوني، المصدر السابق، ص151.

(4)- المصدر نفسه، ص120. / المازاري، أغا، المرجع السابق، ص164.

(5)- المازوني، المصدر نفسه، ص120. / المازاري، أغا، المرجع نفسه، ص164.

(6)- المازوني، المصدر السابق، ص122. / ابن سعد التلمساني، المصدر السابق، ج4، ورقة 338. / المازاري، أغا، المرجع السابق، ص164.

(7)- المازوني، المصدر نفسه، ص125.

الذي وضعه الشيخ واضح للفقهاء عزوز ، وتمنى هذا الأخير أن يعطيه الشيخ نصيبه من العنب لزوجته، وبالفعل حمل الشيخ عزوز العنقود لزوجته، فقالت له: "من أين هذا الرزق؟ فقال لها بعثه إليك الشيخ فكل واسكتي"⁽¹⁾، ويُذكر عن كراماته أن محمد بن عبد القوي لما أصابه الوجع وانتفخ بطنه حتى أشرف على الموت، قصد فارسان الشيخ لطلب المساعدة؛ فرقى لهما ماءً، فلما شربه أوجده الله العافية⁽²⁾.

كما يذكر صاحب كتاب صلحاء شلف قائلا: "حدثني من عاصرت من حفدته أنه قال لإمامه سيدي عزوز: سر بنا لكهوفنا بجبل وافرشان؛ فإنّ الفقراء والواردين هنا علينا وليس عندنا ما نطعمهم، وجيراننا لا يهون عليهم بذل متاعهم، فاصعد بنا للغيران نقيم بها أيّاما، فقال له: كيف يمكننا هنالك الثواء في هذا الزمان، لا ماء ولا مرعى، ونحن مضطرون للماء للوضوء والشرب، فمن أين نتوصل إليه؟ فمضى معه وحمل كل منهما سجادته وإبريقه وعُكازه وزادا يسيرا..... وصحبهما فقراء فقصدوا للمكان المعروف اليوم عند مكناسة بالعباد أي موضع تعبّد الشيخ، فلما جئهم الليل وصلى كل منهم ما شاء الله، قام سيدي عزوز وإذا بالسماء قد جادت برزقها، فجاءه الشيخ..... وحركه وقال له: ألا تسمع يا عزوز لهذا الخير؟ توضأ وأشرب؛ فأصبح من الغد جميع ما حوالهم من الغدران مملوء بماء السماء.... فسُرّ المرابط عزوز بذلك، وازداد تأكيدا في قلبه أنّه من أكابر الرجال"⁽³⁾، وكانت منطقة العباد قد شهدت شحاً في الأمطار فبيست مراعيها، وبحلول الشيخ رفقة أصحابه من الفضلاء، نزل المطر وانتجع الناس بمواشيهم وتم سقيها من الغدران.

أمام تردد الأفراد للشيخ وتقديم شكاوهم التي تنوعت من ظلم وتعيّ وقحط وجفاف لا يمكن أن نتجاهل الدور الاجتماعي للشيخ واضح. خاصة وأنّ الأولياء الصالحين كان لهم دور اجتماعي موازي للسلطة ويتوجه إليهم الأفراد للتبرك والتماس الدعاء.

(1)- المازوني، المصدر السابق، ص 137.

(2)- المصدر نفسه، ص 127.

(3)- نفسه، ص 98-100.

لم تختف كرامة الشيخ بوفاته بل بركاته كانت حيّا أو ميتا على زوّاره وأهل قراره بفضل الله، واعتصم أهل تلك النواحي في أوقات التّهب بحرمه وجواره، فلا يتأذّون⁽¹⁾، وينقل المازوني قصة أحد الفضلاء الذي طوّل بمغرم فلم يكن عنده ما يدفعه، فإذا به وهو في نومته الخفيفة وقف عليه الشيخ واضح قائلا: "ما لك خفت؟ أنت مُخلّصٌ، هذه براءتك..."⁽²⁾، حتى مؤلّف كتاب "مناقب صلحاء شلف" جرّب هذه الكرامات، وعنها يقول: "رجعت من وجهي لبلاد المغرب اعتلّ مركوبي وضاق صدري؛ فاستشفعت إلى الله تعالى به في إنقاذ رحلي وتفريج كربتي؛ فأذاقني الله برد الإجابة لوقي..."⁽³⁾.

خاتمة: تزخر المصنّفات المنقّبية بمادة تاريخية هامة تتجاوز حدود التعريف بالمتصوفة أصحاب الكرامات، ويعد كتاب "مناقب صلحاء شلف" واحدا منها، عرّف من خلاله المؤلّف بعدد من الصلحاء أصحاب الكرامات مشرقا ومغربا، لكن ما قدمه عنهم لا يتجاوز الكرامات والمكاشفات.

عرفت منطقة شلف خلال القرن 7هـ/ 13م رجالاً عرفوا بالصلاح والفضل، منهم الشيخ الولي الصالح الزاهد المتصوف صاحب الكرامات "أبو البيان واضح"، الذي اتخذ من الجبال مأوى له، للتعبد والاقتراب من الله عز وجل، بعيداً عن شهوات الدنيا وملذتها.

من خلال الإشارات الموجزة التي وظفها المازوني تبين أنّ الشيخ واضح كانت له تربية صوفية أثرت في نشأته وتوجهه، واكتمل هذا التكوين بقاء مشائخ الصوفية والاطلاع على مصنّفاتهم، ويعد كتاب "إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي أهم موجه لأبي البيان في توجهه الصوفي، والذي لا نستبعد أنه قد تأثر حتى بعقيدته الأشعرية.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998م.

- ابن بشكوال، كتاب الصلة في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2003م.

(1)- المازوني، المصدر السابق، ص151.

(2)- المصدر نفسه، ص175.

(3)- نفسه، ص151.

- التنيكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج لمعرفة من ليس في الديباج، تحقيق محمد مطيع، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2000م.
- التنسي، محمد بن عبد الله، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعيداد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1405 هـ/ 1985م.
- الحفناوي، أبو القاسم، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيبير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906م
- زروق الفاسي، أبو العباس أحمد بن محمد بن عيسى، قواعد التصوف، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م.
- ابن سعد التلمساني، التلمساني، محمد بن أبي الفضل بن سعيد، النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب، ج4، مخطوط مكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، المغرب.
- الرباط: <https://ia800802.us.archive.org/16/items/Al-nadjmAl-thakib.full/al-nadjm.pdf>
- عبد الرحمن، ابن خلدون، المقدمة، دار الجيل، بيروت.
- الغزالي أبو حامد، مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب، تحقيق صلاح محمد عويضة، د. ت.
- المازوني، أبو عمران موسى بن عيسى، مناقب صلحاء شلف، مختصر كتاب ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار، تحقيق د. عبد القادر بوبايا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2019م.
- ابن مرزوق الخطيب، أبو عبد الله محمد التلمساني، المناقب المرزوقية، تح سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط1، 1429 هـ/ 2008م
- المجريطي، الرسالة الجامعة، نشر وتحقيق جميل صليبا، مطبعة الترقى، دمشق، 1949م.
- المقرئ التلمساني، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 2004م.
- الونشريسي، أحمد بن يحيى، وفيات الونشريسي، تحقيق محمد بن يوسف القاضي، شركة نوايغ الفكر، القاهرة، ط1، 2009م.
- يحي بن خلدون، أبو زكريا، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980م
- باحو مصطفى، علماء المغرب، ومقاومتهم للبدع والتصوف والقبورية والمواسم، جريدة السيل، ط2، 2007م.
- دخان عبد العزيز الصغير، الامام العلامة محمد بن يوسف السنوسي التلمساني وجهوده في خدمة الحديث النبوي الشريف، دار كردادة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2011م.
- حنفي عبد المنعم، الموسوعة الصوفية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2003م.
- خديجة السمعلي، الفكر الصوفي من خلال مناقب أبي السعيد الباجي، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، د. ت.
- خير رمضان يوسف محمد، نواذر الشوارد فوائده التحقيق والتدقيق لثقافة عالية، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1999م.
- الكاشاني، اصطلاحات الصوفية، تحقيق عبد العال شاهين، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع، ط1، 1992م.
- المازري، الأغا بن عودة، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت.